

نظرية التلقي وإشكالية المصطلح في النقد العربي

The theory of reception and the problem of the term in Arab criticism

حسيبة صامت *

تاريخ النشر: 2024/12/20	تاريخ القبول: 2024/05/22	تاريخ الإرسال: 2023/06/26
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

تعد نظرية التلقي/الاستقبال ذات المنبت الألماني من ضمن التوجهات النقدية الحديثة التي حملت بين طياتها رؤى وتصورات منهجية جديدة في التعامل مع الظاهرة الإبداعية، فكان من أهم ما جاءت به ودعت إليه هو تركيز دائرة الاهتمام حول المتلقي باعتباره حجر الزاوية في العملية الإبداعية. وقد أطرت هذه النظرية مجموعة من المصطلحات والمفاهيم النقدية، غير أنها كانت تفتقر إلى الدقة والضبط في التحديد نظرا لتعدددها وتنوعها من باحث لآخر، مما ولّد فوضى واضطرابا مصطلحيا حادا شمل كل من مصطلح التلقي وما يندرج ضمنه من مفاهيم أساسية، فبات يوسم هذا الوضع بالإشكالية والتي نروم من خلال هذه الدراسة إلى تشخيص أسبابها وتتبع تجلياتها وكذا بحث مقترحات حلول لها. وتستمد هذه الدراسة أهميتها من كونها تحاول تسليط الضوء على إحدى أهم الإشكالات التي تمور بها الساحة النقدية، والتي شكلت هاجسا لدى نقادنا ولا تزال بحاجة إلى جهود بحثية جادة.

الكلمات المفتاحية: التلقي، الاستقبال، الإشكالية، المصطلح، النقد العربي.

Abstract:

The German-originated reception theory is one of the modernist critical trends that brought new methodological insights and perceptions in dealing with the creative phenomenon. One of its most important axes was to focus on the recipient as the cornerstone of the creative process. This theory framed a range of critical terminology and concepts, but it lacked precision

* جامعة تيسمسيلت، hassiba.samet@univ-tissemsilt.dz

in the determination because of its diversity from researcher to researcher, creating chaos and acute terminological disorder that encompassed both the term "reception" and the underlying concepts. This situation has become problematic and, through this study, we seek to diagnose its causes, follow its manifestations, and research proposals for solutions. This study is important because it tries to highlight one of the most important problems in the critical arena, which has been an obsession with our critics and continues to require serious research efforts.

Key words: reception, problem, term, Arab criticism.

المؤلف المرسل: حسية صامت hassiba.samet@univ-tissemsilt.dz

*** **

1- مقدمة:

تعد إشكالية ترجمة وضبط المصطلح النقدي - على غرار مصطلحات نظرية التلقي- من ضمن أبرز الإشكالات التي أفرزها تلقي النقد العربي للمناهج والنظريات الغربية الحديثة، مما جعل الممارسة النقدية تشهد اضطرابا ملحوظا ازداد «بسبب حداثة معظم المصطلحات النقدية الحديثة التي ولدها الانفجار النقدي في ميدان الشعرية ونظرية الأدب منذ الستينيات وحتى يومنا هذا»¹، فبالإضافة مع انتقال نظرية التلقي إلى العالم العربي اجتاحت الساحة العلمية تشكيلة من المصطلحات والمفاهيم النقدية الحديثة التي غالبا ما كانت تفتقر للدقة والوحدة بين مختلف الباحثين والنقاد، فكان التنوع والتشتت والاضطراب سماتها الغالبة، وهذا ما انعكس سلبا على هذه النظرية ومتلقيها فشكل عائقا أمام انتشارها واستيعاب طروحاتها. ومن هنا شكل هذا الوضع إشكالية حادة باتت تستوجب التفاتة جادة بغية إعادة النظر والتدقيق. فماهي مختلف الأسباب الثابتة وراء إشكالية مصطلح نظرية التلقي/الاستقبال وما يندرج ضمنها من مفاهيم أساسية؟ وما هي أبرز تجلياتها في الساحة النقدية الغربية عامة والعربية خاصة؟ وكيف السبيل إلى إيجاد حلول من شأنها التخفيف من حدتها؟

وعليه نحاول من خلال هذه الورقة البحثية تقديم قراءة وصفية تحليلية نعالج من خلالها صلب هذه الإشكالية للإجابة عن أبرز التساؤلات التي تثيرها.

2- الدراسة المصطلحية باعتبارها ضرورة علمية:

لقد أولت الدراسات الأكاديمية الحديثة اهتماما ملحوظا بالمصطلح النقدي ومجمل قضاياها والإشكاليات المتعلقة به، وذلك نابع من وعي الباحثين والنقاد - على اختلاف مرجعياتهم الفكرية وتوجهاتهم النقدية- بأهميته ووظائفه العلمية التي يضطلع بأدائها، كون المصطلح هو البوابة التي يلج من خلالها المتلقي إلى عالم المعرفة في شتى مجالاتها، ولا شك في أن وضوحه هو ما يحدد وضوح هذا العلم وغموضه سيعكس حتما غموض المفاهيم التي يحملها ويشير إليها. وفي ظل الحاجة الماسة للاستفادة من المفاهيم النقدية التي أفرزتها الحداثة الغربية بات من الضروري ترجمة المصطلحات، لفهم المناهج النقدية الغربية بمقولاتها الفكرية وحمولاتها الايديولوجية وآلياتها الإجرائية، الأمر الذي يستوجب من الناقد العربي أن يكون على دراية وإحاطة بالمصطلح النقدي في بيئته الأم، بيد أن مهمة بهذا الحجم ليست بالسهلة أبدا، بناء على ذلك يمكن القول «إن المصطلح هو شفرة الخطاب النقدي وطلعه المثمر الذي لولاه لما كانت المعرفة، وما وقع التواصل، إنه مازال حد التعريف ولبنة النظرية التي تستوى على بنائها به»².

كما أن الدراسة المصطلحية تستمد أهميتها الكبرى من الأهمية التي يكتسبها المصطلح النقدي في حد ذاته؛ على اعتبار أن «مفاتيح العلوم مصطلحاتها، ومصطلحات العلوم ثمارها القصوى. فهي مجمع حقائقها المعرفية وعنوان ما به يتميز كل واحد منها عمّا سواه، وليس من مسلك يتوصل به الإنسان إلى منطق العلم غير ألفاظه الاصطلاحية حتى لكانها تقوم من كل علم مقام جهاز من الدوال ليست مدلولاته إلا محاور العلم ذاته ومضامين قدره من يقين المعارف وحقيق الأقوال»³، بالإضافة إلى ذلك يستمد المصطلح أهميته أيضا من كونه تلك «الأداة الإجرائية الأبرز في الممارسة النقدية، وكلما كان المصطلح قويا وواضحا وعمليا وتواصليا انعكس هذا على قيمة العمل النقدي وصورته»⁴، فوضعية المصطلح النقدي -من حيث الوضوح أو الغموض والتعقيم- هي ما يحدد وضعية الممارسة النقدية من حيث الجودة والرصانة من عدمها.

ولما كان «تحديد المفاهيم والمصطلحات مسألة ضرورية لضبط وتنظيم العملية الفكرية والتحليلية التفسيرية وتأطير ممارسات الفكر الاجتماعي في سياق منهجي بعيدا عن الفوضى والشتات الذهني»⁵، أصبح من الضرورة بمكان معاينة المصطلحات وتتبع سيرورة تطورها منذ أن كانت مجرد لغة معيارية وحتى انتقالها إلى مستوى اللغة الاصطلاحية، المبنية وفق أسس وقوانين لغوية تعكس مدى كفاءتها وامتيازاتها المفاهيمية الخاصة، بحيث «إن هذا الامتياز الذي يحتفظ به المصطلح في أنظمة الدلالة يجعلنا نؤكد الوظيفة التداولية والايستمولوجية التي يمكن أن ينهض بها المصطلح بوصفه وسيطا مشتركا بين مختلف اللغات والثقافات»⁶، ووعيا منها بالوظيفة المهمة التي بات يضطلع المصطلح بأدائها أبدت الساحة النقدية العربية اهتماما بالغا بالمصطلح فخصصت له دراسات مستفيضة، إذ «لا شك أن الساحة النقدية المعاصرة بدأت تستشعر إلى حد كبير أهمية جلاء واستقرار المصطلح النقدي، فبالرغم من استشراف آفة الضبابية والاضطراب فيه إلا أن عملية الإفصاح والإبانة – وإن كانت على درجة أقل- بدأت تعي خطورة ذلك على الخطاب النقدي خاصة في العشرين عاما الأخيرة، ولعل ذلك ما دفع مجلة (فصول) إلى إصدار عدد خاص حول (قضايا المصطلح النقدي) عام 1987... في حين أن مجلة (علامات) كانت أشد إخلاصا ووفاء مع أطروحتها حول الموضوع نفسه بعد حوالي ست سنوات»⁷، لتتوالى بعدها عدة محاولات في استكمال مسيرها وتوجيهها نحو بلورة معالم نظرية علمية تعنى بقضايا وإشكالات المصطلح النقدي. إذ يصعب حصرها كلها في هذا العرض. ورغم اشتراك هذه الدراسات من حيث التفافها حول قضية نقدية واحدة ألا وهي المصطلح النقدي، إلا أن زوايا وطرق مناقشتها للموضوع قد تشعبت واختلفت من باحث لآخر، مما أسفر عن نتائج مختلفة نسبيا، ولعل من الدراسات النقدية التي استطاعت أن تفتك وتحظى بقدر من الأهمية في هذا المجال دراسة "عزت محمد جاد" الموسومة بـ (نظرية المصطلح النقدي)، نظرا لثراء طرحها المعرفي الذي حوته بين دفتيها، وكذلك لتناولها قضايا المصطلح النقدي بشكل يقترب من الشمولية. ومن هنا «يحظى المصطلح الأدبي والنقدي اليوم بعناية استثنائية من قبل النقاد والباحثين والمترجمين والكثير من المؤسسات والمحافل والمجامع اللغوية والعلمية وهيئات التعريب في الوطن العربي، حتى يبدو وكأننا نعيش في

عصر ذهبي حقيقي للمصطلح الأدبي يكاد يغطي على الكثير من المظاهر المهمة في ثقافتنا العربية الحديثة وبشكل خاص منذ السبعينات وحتى الآن»⁸.

3- نظرية التلقي/الاستقبال وإشكالية المصطلح:

3-1: بحث في أصل الإشكالية وأسبابها:

لقد شهدت الساحة النقدية بالموازاة مع ظهور نظرية التلقي/الاستقبال بداية لبلة مصطلحية جديدة على الصعيدين الغربي والعربي على حد سواء، فلم يكن هذا المصطلح وما ينضوي تحته من مفاهيم أساسية واضح المعالم بل كان يفتقر إلى الكثير من الدقة والوضوح، ولذلك «يثير مصطلح التلقي الكثير من الإشكالات التي تمتد على المستويين العمودي والأفقي، فالمتقضي لجذور هذا المصطلح يصادف ملامح له أثناء تجواله داخل المنظومة النقدية الأدبية الألمانية من جهة، ومن جهة أخرى يكتشف أن التوجه نحو القارئ موضع اهتمام كثير من النظريات النقدية المعاصرة، إضافة إلى إحالة مصطلح التلقي على العديد من المدلولات غير الأدبية»⁹. وهذا ما ذهب إليه "هانس روبرت ياوس" H.R. Jauss في عام 1979 حين أشار مازحا إلى أن القضايا المتعلقة بالتلقي أنسب إلى الإدارة الفندقية منها إلى الأدب. علاوة على ذلك فإن كثرة الأبحاث المتعلقة بهذه النظرية لم تفضي إلى توحيد المفهوم، ومازال النزاع قائما حتى اليوم حول ما تستهدفه هذه الدراسات على وجه التحديد، وربما كانت الصعوبة الأساسية هي في تحديد ما يعنيه المصطلح تحديدا دقيقا¹⁰، ويرجع ذلك إلى تباين مدلوله الاصطلاحي من لغة الأصل (الألمانية) إلى لغة النقل (الفرنسية والإنجليزية)، ف «لئن كانت كلمة *Rezeption asthetik* الألمانية توحى للأسف بسوء فهم محتوم، فإن كلمة *Réception* الفرنسية أو *Reception* الإنجليزية لا تستعمل إلا في لغة الصناعة الفندقية. غير أن كثرة تداول هذا المبتكر المعنوي في النظرية الجمالية العالمية تستدعي التدقيق في استعمالها»¹¹، ومن الأمثلة التي يسوقها إلينا "هولب" لإبراز تمظهرات هذه الإشكالية في اللغة الألمانية هي صعوبة التفريق بين التلقي والفاعلية، وهذا ما أعرب عنه في معرض قوله «والواقع أن الاختلاف بين التلقي *Rezaption* والفاعلية *Wirkung* (من المعتاد ترجمتها بكلمة الاستجابة أو التأثير) يمثل واحدة من أكثر المعضلات إلحاحا؛

فكلاهما يتعلق بما يحدثه العمل في شخص ما من أثر، كما لا يبدو من الممكن الفصل التام بينهما»¹²، وما نستشفه من ذلك هو أن إشكالية ضبط مصطلحات نظرية التلقي متجذرة في بيئة المنشأ وليست فقط وليدة التلقي العربي، «والواضح أن المصطلح أثار قلقا كبيرا بين المعنيين بالنظرية في مختلف المدارس الغربية، حتى استبد بهم الحوار الطويل حول مفهوم هذا المصطلح وتحري الدقة في تحديد معناه ودلالته»¹³.

وحتى يتسنى لنا معاينة وضع مصطلح التلقي في المنظومة الأدبية والنقدية من حيث الضبط والوضوح، وكذا لمعرفة مدى ملائمتها لدلالته من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية لا بأس بالتوقف عند بعض الحدود المفهومية التي صيغت حوله سواء في المعاجم العربية أو الغربية. فبالعودة إلى معجم لسان العرب نلفي مادة "التلقي" مرتبطة في مدلولها بالمعنى العام للاستقبال، فيقال في العربية: «تلقاه أي استقبله. وفلان يَتَلَقَّى فلاناً، أي يستقبله. والرجل يُلَقَّى الكلام، أي يُقْنَهُ»¹⁴.

أما في الإنجليزية فيقال: «"Reception" أي استقبال أو تلق، ويقال: "Receptionist" أي متلقية تستقبل الوافدين في مكتب أو مؤسسة أو فندق، "Receptive" أي متلقٍ أو مستقبل»¹⁵، ويتبين لنا من ذلك أن مصطلح "Reception" في الإنجليزية يفيد الدلالة على معنيين معاً هما التلقي والاستقبال، بيد أن هذين المفهومين "التلقي والاستقبال" يتخذان منحا دلالية مختلفا في الثقافة العربية يحدد تبعاً لطبيعة الاستعمال في سياقات الخطاب المختلفة.

في سياق متصل تجدر الإشارة إلى أن المعاجم الفرنسية هي الأخرى لم تتعدى في معالجاتها لمصطلح التلقي نطاق المفهوم اللغوي التقليدي الذي يفيد الدلالة على معنى "الاستقبال"، مغفلة بذلك المفهوم الجمالي للمصطلح، «فبالرجوع إلى المعاجم الفرنسية الأساسية أو الموسوعات المعروفة بل وحتى بعض المعاجم الخاصة بالمصطلحات الأدبية أو اللسانية أو النقدية الحديثة، فإننا لا نجد فيها ذكراً لمصطلح التلقي بمفهومه النظري الحديث. وخلاصة ما جاء في المعجم الفرنسي هو أن التلقي مازال كلمة تفيد فعل الاستقبال والترحاب والاحتفال والاحتفاء. ولا نجد فيه ما يشير إلى معنى جمالية التلقي أو نظرية التلقي بصفة عامة. في حين أننا نجد تفصيلاً للتلقي في مفهومه العلمي الدقيق

في مجال الكهرباء أو تأويل الإشارات الصوتية أو الضوئية»¹⁶، بناء على ذلك كان من الصعوبة بمكان العثور على معجم لغوي استوفى الحديث عن مصطلح التلقي بمفهوميه (اللغوي والجمالي والنظري) كما ورد في المعاجم الألمانية «فبالرجوع إلى الموسوعة البريطانية والمعجم الإنجليزي أكسفورد والمعجم الأمريكي ويستر، وحتى بعض معاجم المصطلحات النقدية، نجد فيها مصطلح التلقي غالباً في مستواه النظري»¹⁷، ومن هنا كان الاهتمام بمصطلح التلقي بمفهومه الجمالي متأخراً نسبياً، فلم يظهر إلا مع أواخر السبعينات، أي بالموازاة مع بداية ترجمة بعض الأعمال الألمانية الصادرة عن ممثلي نظرية التلقي ومنظريها.

أما فيما يتعلق بالخطاب العربي فغالباً ما كان يحفل باستخدام مادة "التلقي" بدل "الاستقبال": «فالكثير الغالب في الاستعمالات العربية هو استخدام مادة "التلقي" بمشتقاتها مضافة إلى النص سواء أكان النص خبراً أو حديثاً، أو خطاباً، أو شعراً، وحسبنا في هذا أن القرآن الكريم عول على هذه المادة في أنساقه التعبيرية، ولم يستخدم مادة "الاستقبال" في هذا المجال»¹⁸. هذا ما يتجلى عبر مواضع عدة من آيات الذكر الحكيم، من بينها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْفُزَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾¹⁹. وفي قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾²⁰. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾²¹. وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾²². فما يلاحظ من ذلك أن "التلقي" هو المصطلح الموظف ضمن القرآن الكريم، بيد أن مصطلح "الاستقبال" لم تجري العادة على توظيفه، إضافة إلى ذلك فإن مادة التلقي قد وردت ضمن عدة سياقات لتحيلنا بذلك إلى عدة دلالات وإشارات، غير أنها لم ترد بمعناها الجمالي قط.

وإذا ما تأملنا الأسباب الكامنة وراء اضطراب مصطلحات نظرية التلقي في بيئتها الغربية، لألفينا العامل الأساسي يكمن في احتدام الصراعات المذهبية بين مختلف المدارس والتيارات داخل هذه النظرية: إذ «يبدو من محتوى النظرية، ومن الأجواء العقلية والسياسية التي صاحبت ظهورها في الأدب الألماني أن أساس المشكلة بين المتناظرين ليس فقط في فقدان التأثير المتبادل، بل مصدرها الخلافات المذهبية الحادة

بين أطراف الحوار من رواد الرمزية والبنوية، والجمالية والماركسية، والشكلية والروسية. فالنظرية - كما عرفنا- كانت تمردا على تلك المذاهب المنتشرة في ألمانيا آنذاك، ولعل اختيار مصطلح "الاستقبال" بالذات كان يمثل لدى أصحابه معنى من معاني التمرد على النقد الماركسي بشكل خاص»²³.

يتفق معظم الباحثين في مجال نظرية التلقي حول صعوبة إيجاد مصطلح موحد لها، وذلك نتيجة لتعدد تسمياتها من منظر لآخر، وهذا ما ينم عن حجم الإشكالية التي يتخبط فيها مصطلح التلقي، ففيما يتعلق ببيئة النقد العربي تعتبر الترجمة عاملا أساسيا وحاسما في اضطراب مصطلحات نظرية التلقي، وذلك نظرا لاختلافها من باحث لآخر، وإذا ما تساءلنا عن أهم الأسباب المؤدية إلى اختلاف الترجمة بين الباحثين العرب عموما لألفينا البعض يحصرها في أربعة عوامل أساسية؛ فهي إما بسبب تفضيل أحدهما لمترادف دون الآخر، أو أن الاختلاف بين المترجمين ناجم عن تفضيل أحدهما لترجمة المصطلح بينما ارتأى الثاني تعريبه، كما قد ينجم التباين في الترجمة بين المترجمين عن خطأ أحدهما في اختيار المقابل المناسب للمصطلح، أما آخر الأسباب التي يمكن أن يعاز إليها اختلاف الترجمة فهي كون المترجمين ليسوا صنفا واحدا بل أصنافا متعددة، إذ يصدر عن تصورات مختلفة للترجمة كما أنهم يتبعون فيها طرقا متباينة؛ فنجد منهم من يقدم لغة الأصل على لغة النقل، ومن يقدم لغة النقل على لغة الأصل، وأيضا من ينظر إلى النص بعين المؤلف ومن ينظر إليه بعين المتلقي²⁴.

كما تعاز إشكالية مصطلح التلقي عند بعض الباحثين أيضا إلى عدة أسباب، ف«هذه الكثرة في المصطلحات إما أن ترجع إلى اختلاف جذري بين كل منها، بحيث يشير كل منها إلى نظرية أو منهج مختلف كل الاختلاف عن الآخر. أو أنها ترجع إلى اختلاف في الترجمة، حيث يستخدم كل ناقد عربي مرادفا عربيا للمصطلح الأجنبي، الذي يحتمل أكثر من معنى باللغة العربية، منطلقا من رؤيته الذاتية للنظرية نفسها وللدور الذي تلعبه في خدمة النص الأدبي. إلا أن هذه الإشكالية إذا تم حسمها في المصطلح الأجنبي، فسيكون الأمر كذلك في المصطلح المرادف له في العربية لأنه مجرد ترجمة له»²⁵.

يرجع باحث آخر أصل الإشكالية إلى أسباب أخرى «بعضها اجتهادية تختص بتعديل المصطلح، والبعض الآخر نابع من النظرية نفسها. وهكذا صرنا أمام مصطلحات كثيرة، فماذا نقترح - إذن- بإزاء هذا التدفق الاصطلاحي الذي يصل حد العشوائية؟»²⁶، وأيا كانت الأسباب الكامنة وراء هذه الإشكالية فقد كان لها تأثيرها البالغ على هذه النظرية ومتلقيها؛ إذ «إن مثل هذه الإشكالية تصدم كل من يحاول البحث في هذه النظرية، وتسبب كثيرا من اللبس لأن كل مرجع يستخدم مصطلحا يختلف عن الآخر، وتعدد المصطلحات المعبرة عن النظريات المتوجهة نحو القارئ في العربية فتصل إلى ستة مصطلحات تقريبا، وهي: تلقي- استقبال- نقد الاستجابة- القراءة- التقبل- تأثير»²⁷. من هنا كان لاختلاف النقاد العرب في ترجمة مصطلحات النظرية التأثير الأكبر في تصعيد هذه الإشكالية، نظرا لغياب الجهود الجماعية في ترجمة المصطلح، فقد كانت هذه العملية تحتكم للفردية والعفوية ولا تخضع لضوابط علمية موحدة ودقيقة، مما حال دون إمكانية توحيد هذه المصطلحات، ف «ما يحصل هو أن الترجمة أو الاقتراض أو التعريب كثيرا ما تخضع للحظ فتصيب فتكون "رمية من غير رام"، وتخطأ أحيانا كثيرة فيؤدي الخطأ إلى نتائج وخيمة في المجال العلمي والثقافي والسياسي»²⁸.

2-3: تجليات الإشكالية في النقد العربي:

لقد ألقى المتلقي العربي عامة والنقاد خاصة أنفسهم أمام فوضى مصطلحية عارمة بالموازاة مع استقبال نظرية التلقي الألمانية - كغيرها من المناهج والنظريات الأخرى- «وقد شهدت الحياة الثقافية والأكاديمية والمعجمية حركة عربية ناشطة للتعامل مع هذا الانفجار المعجمي والاصطلاحي الجديد سواء ضبط المفاهيم، أو على مستوى إيجاد مقابلات أو موازيات مترجمة لهذه المفاهيم. وقد واجهت اللسانيين والمترجمين والنقاد والمجامع اللغوية وهيئات التعريب في الوطن العربي مشكلات كبيرة ومستعصية وهي تعالج هذه الإشكالية»²⁹، والجدير بالتنويه أن إشكالية المصطلح التي شهدتها النقد العربي تزامنا مع استقبال نظرية التلقي كانت متجذرة في بيئة النقد الغربي، غير أن التلقي العربي لها قد أسهم هو الآخر في توليد فوضى قارة وأزمة حادة كان لها اليد الطولى في مضاعفة حجم الإشكالية؛ حيث «أخذت تظهر في الساحة

النقدية العربية بدايات بليلة مصطلحية وفكرية فيما يتعلق بنظرية التلقي/الاستقبال الأدبي. فقد ارتفعت وتائر الحديث عن "التلقي" و"المتلقي" و"التجربة الجمالية" في النقد الأدبي العربي المعاصر، ولكن مضامين هذه المصطلحات تختلف باختلاف المرجعيات الفكرية لمستخدميها. فالمصطلحات النقدية واحدة ولكن المفاهيم ليست واحدة وتلك إحدى المشكلات الرئيسية للنقد الأدبي العربي المعاصر³⁰، ولعل هذا ما شكل عاملا أساسيا في صعوبة استيعاب هذه النظرية بمضامينها المعرفية وخلفياتها الإيديولوجية، مما أثر سلبا على انتشارها وذلك نظرا للتشتت والاضطراب الذي بات يطبع مصطلحاتها.

بناء على ما سبق، كان «المتابع للألفاظ المستعملة للتلقي في نظرية النقد العربي يجد أسماء وصفات كثيرة، ربما لا تقل عددا عن تلك التي وجدناها في النقد الغربي المعاصر وسواه»³¹، وتأخذ إشكالية مصطلح نظرية التلقي/الاستقبال وما يندرج في كنفها من مفهومات عدة تجليات في مدونة النقد العربي، حيث يمكن التماس مظاهر هذه الإشكالية بشكل واضح على مستوى صياغة هذه المفاهيم التي تفتقر للوحدة والدقة وتنسم بالاختلاف - غالبا- بسبب خضوعها للترجمة الفردية، كما هو الحال عند كل من سعيد علوش وبسام بركة في تعاملهما مع مفهوم "Rezeption" «فقد عرَّب سعيد علوش هذه الكلمة تارة بـ "الاستقبال" وتارة بـ "التلقي"، وتحدث عن "جمالية الاستقبال" و"الجمالية الاستقبالية"، و"المستقبل"، و"فعل الاستقبال" و"تاريخ الاستقبال"، ولكنه تحدث أيضا عن "جمالية التلقي". أما بسام بركة فقد اعتمد معادلا مصطلحيا واحدا لـ (Rezeption) هو "التلقي"، فتحدث عن "التلقي المنتج" و"جمالية التلقي... وثمة إشكال ترجمي مصطلحي يتعلق بمفهوم (immanente interpretation) الذي ترجمه سعيد علوش بـ "التفسير الضمني"، بينما استخدم بسام بركة تعبير "التفسير المباشر"، وأضاف إلى ذلك صفة (محايت) واضعا إياها بين هلالين، مما أوقع القارئ في حيرة شديدة. فهل العلاقة بين صفتي (مباشر) و(محايت) علاقة ترادف؟ وفي كل الأحوال فإن تعريب كلمة (immanent) بـ (مباشر) هو تعريب خاطئ، والترجمة الصحيحة لهذه الكلمة هي "ضمني"³².

من هنا أسفرت ترجمة النقد العربي لنظرية التلقي عن عدة ترجمات، حيث بات من الصعوبة بمكان العثور على مقابل عربي موحد للمصطلح بين جميع الباحثين

ومترجمي النظرية، وهذا ما نستشفه من مختلف الترجمات التي تصدرت الساحة النقدية العربية ومنها «ترجمة "رعد عبد الجليل جواد" حيث عنوان مؤلف "روبرت هولب" *Holippe. Robert* بعنوان "نظرية الاستقبال"، بينما ترجم "عز الدين إسماعيل" الكتاب نفسه بمصطلح "نظرية التلقي"، كما اختار "حسين الواد" ترجمتها إلى "جمالية التقبل"، أما "نبيلة إبراهيم" فقامت بتسميتها بـ "نظرية التأثير والاتصال" كما جاء في مجلة فصول، وبالنسبة "لمحمود عباس عبد الواحد" فعنده "قراءة النص وجماليات التلقي"، ونجد إلى جانب هؤلاء "سامي إسماعيل" الذي بدوره يسميها في كتابه "جماليات التلقي"³³، فما يطبع هذه الترجمات لمصطلح نظرية التلقي/الاستقبال هو التنوع والاختلاف، وإن كانت المصادر التي تم استقاؤه منها واحدة.

ولا يخلو كتاب (مناهج الدراسات الأدبية) لحسين الواد من مظاهر إشكالية المصطلح الناجمة عن محاولة نقل نظرية التلقي ومفاهيمها إلى العالم العربي، وهذا ما يتجلى تحديدا عبر الفصل الذي خصصه الباحث لتناول "جمالية التقبل"، حيث مثلت محاولة نقل هذه النظرية عن لغة وسيطة (الفرنسية) عاملا أساسيا في بروز ملامح هذه الإشكالية، بحيث «لم يستق حسين الواد نظرية التلقي/الاستقبال الأدبي من منابعها الأصلية، بل استقاها من مصادر فرنسية وسيطة. فقد اطلع على كتاب "حول نظرية التقبل" لهانس روبرت ياوص في ترجمته الفرنسية الصادرة عام 1978... ولذا يمكن اعتبار ما جداء في كتاب حسين الواد أول تعريف رصين بهذه النظرية في العالم العربي، ومن الطبيعي ألا تخلو هذه البداية من مشكلات، وبصورة خاصة على صعيد المصطلح النقدي. فقد صاغ المؤلف معادلات مصطلحية عربية لمصطلحات نقلها عن الفرنسية دون أن يعرفها في صورتها الأصلية (الألمانية)... لقد صاغ حسين الواد هذه المصطلحات صياغة لا يُقرُّه فيها المطلعون على نظرية التلقي/الاستقبال في صورتها الألمانية»³⁴، وتتمثل هذه المصطلحات فيما يلي:

- جمالية التقبل *Esthétique de la Réception* ³⁵ - أفق الانتظار *Horizon d'attente*

³⁶ - المسافة الجمالية *Distance Esthétique* ³⁷

ومن مظاهر الاضطراب في ترجمة مصطلحات نظرية التلقي، أن نلفي عدة مصطلحات عربية في مقابل مصطلح أجنبي واحد، كما هو الحال مع ترجمة مصطلحي: "Reception Theory" و "Reader Response Criticism"، حيث «يمكن تصنيف عملية ترجمة المصطلحين الأجبيين كما يلي:

- reception theory: تلقي- استقبال- تقبل.

- reader response criticism: نقد استجابة القارئ- قراءة- تأثير»³⁸.

3-3: مقترحات فكرية للحد من هذه الإشكالية:

إن استقبال مصطلحات نظرية التلقي الغربية ومحاولة استنباطها في بيئة غير بيتها وثقافة غير ثقافتها أمر محفوف بالمخاطر، خاصة في ظل قلة الوعي بقوانين الترجمة وجهل أساسياتها، ولذلك كان «التصور النظري والمنهجي يوجب حين ترجمة مفهوم من المفاهيم إمعان النظر قبل الترجمة، والتأمل في الأبعاد والنتائج المؤدية إليها في الثقافة الخاصة حتى يمكن أن يتلاءم ما يترجم أو يقتض (أو يعرب) مع تلك الثقافة، ويجد سنداً له فيه حتى يشيع وينتشر ويؤدي وظائفه الثقافية والعلمية والوصفية والتأويلية والعلمية»³⁹، ومن هنا بات يستوجب على المترجمين توحيد الجهود وتكثيفها من أجل الحد من إشكالية ترجمة مصطلحات نظرية التلقي، والوصول إلى مصطلحات أكثر دقة وعلمية، وذلك بصياغة مبادئ وقوانين موحدة بين الباحثين من شأنها تسيير هذه العملية وتأطيرها.

وإذا ما أخذ الباحث/الناقد العربي على عاتقه مهمة البحث عن حلول من شأنها أن تحد من الفوضى والاضطراب الذي تتسم به مصطلحات نظرية التلقي، يستوجب عليه أن يدرك أنّ «هذه المهمة لا تتوقف عند الجهد البحثي والإحصائي والتعريف فحسب، إنما تتعدى ذلك إلى ما هو أهم وأعمق وأكثر فائدة ألا وهو حضور الرؤية في وضع المصطلح بصيغته النهائية منعا للخلل والارتباك الذي قد يصيب المفاهيم المتباينة حول المصطلح بحكم انتسابه إلى أكثر من حقل معرفي، والرؤية هنا تتحدد بإيجاد نسق موحد تتقارب فيه المفاهيم المكونة لنسيج مصطلح واحد على نحو تتسم فيه الدلالة العامة له بالوضوح والانسجام والتكامل»⁴⁰.

بناء على ما تقدم بات يتعين على المختصين إعادة النظر في المصطلحات النقدية المستوردة من البيئة الغربية من أجل ضبطها أكثر، ولن يتأتى هذا المطلب إلا من خلال إجراء عملية تدقيق ومعاينة وفحص شامل لهذه المصطلحات، سواء من حيث بنيتها اللغوية أو أبعادها الدلالية في بيئة المنشأ وكذا في بيئة المحضن أيضاً، وهذا ما يفرضه الوضع الفكري والنقدي الراهن الذي أصبح يجد من خلاله الناقد العربي نفسه «ومعه القارئ أيضاً» داخل شبكة معقدة من المصطلحات النقدية الحديثة التي أطلقها الانفجار النقدي الهائل في هذا القرن، والتي تتطلب الفحص والتعيين وإعادة التقويم تجنباً لكل لبس أو غموض أو تداخل وصولاً إلى رؤية منهجية ونقدية حديثة وواضحة قادرة حقا على استنطاق النص الأدبي وتأويله»⁴¹.

4- خاتمة:

تأسيساً على ما سبق توصلنا إلى جملة من النتائج التي أبانت عنها هذه الدراسة، والتي يمكن إيجازها فيما يلي:

- تعد الدراسة المصطلحية صورة علمية ملحة، تقتضيها الساحة النقدية بمتغيراتها الفكرية والمنهجية وما تطرحه من تصورات ومصطلحات ومفاهيم تفتقر للدقة والتمحيص.

- تستمد الدراسة المصطلحية أهميتها من أهمية المصطلح في حد ذاته؛ على اعتبار أن المصطلحات هي مفاتيح العلوم ووضوحها سيعكس حتماً وضوح هذا العلم، وغموضها سيعكس غموضه أيضاً.

- إن إشكالية ضبط مصطلحات نظرية التلقي متجذرة في بيئة النقد الغربي (بيئة المنشأ)، وليست فقط وليدة التلقي العربي.

- لقد أسهم التلقي العربي لنظرية التلقي في مضاعفة حجم إشكالية المصطلح، حيث اتخذت هذه الإشكالية عدة تجليات في الساحة النقدية العربية يمكن التماس مظاهرها بشكل أوضح على مستوى صياغة المفاهيم التي كانت تفتقر للوحدة والدقة وتتسم بالاختلاف بسبب خضوعها للترجمة الفردية، فقد تعددت المصطلحات المتوجهة نحو

القارئ في العربية حتى وصلت إلى ستة مصطلحات تقريبا: (تلقي، استقبال، نقد الاستجابة، القراءة، التقبل، التأثير).

- يفتقر مصطلح التلقي إلى الدقة والضبط سواء في المعاجم العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية، وذلك نظرا لاعتفاء هذه المعاجم بتقديم هذا المصطلح في دلالاته اللغوية التي غالبا ما كانت تفيد فعل الاستقبال، دون التطرق إلى دلالاته النظرية والجمالية كما وردت في المعاجم الألمانية.

- تعتبر الترجمة عاملا أساسيا في اضطراب مصطلحات نظرية التلقي، نظرا لاختلاف هذه العملية من باحث لآخر فهي تحتكم للفردية والعفوية ولا تخضع لضوابط علمية موحدة ودقيقة، مما ينجم عنه اختلاف وتنوع في تحديد المصطلحات ومفاهيمها.

- إن حضور الرؤية في ظل وضع مصطلحات نظرية التلقي بصيغتها النهائية أمر ضروري، لمنع الخلل والارتباك الذي يصيب المفاهيم المتباينة حول المصطلح نتيجة انتمائه إلى أكثر من حقل معرفي.

*** **

5- الهوامش:

¹ فاضل ثامر: اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء- بيروت، 1994، ص: 177.

² عزت محمد جاد: نظرية المصطلح النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ط، القاهرة، 2002، ص: 07.

³ عبد السلام المسدي: قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب، د ط، القاهرة، 1984، ص: 11.

⁴ فانتن عبد الجبار: الخطاب النقدي في مرايا القراءة "إشكالية المنهج والمصطلح مقاربات في نقد النقد"، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط 1، عمان، 2017، ص: 07.

⁵ عبد الوهاب المسيري: في الخطاب والمصطلح الصهبيوني "دراسة نظرية وتطبيقية"، دار الشروق، ط 1، القاهرة، 2003، ص: 23.

⁶ فاضل ثامر: المصطلح النقدي بوصفه تعبيرا عن الوعي المنهجي في الخطاب النقدي العربي الحديث، مجلة ثقافات، ثقافية فصلية تصدر عن كلية آداب جامعة البحرين، ع: 03، صيف 2002، ص: 45.

⁷ عزت محمد جاد: نظرية المصطلح النقدي، ص: 07.

⁸ فاضل ثامر: المصطلح النقدي بوصفه تعبيرا عن الوعي المنهجي في الخطاب النقدي العربي الحديث، ص:

- ⁹ فؤاد عفاي: نظرية التلقي "النشأة وإشكالات المصطلح"، مجلة الكلمة، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، ت-ن: 31 مارس 2013، ت-إ: 11 جوان 2023، (<http://kalema.net>).
- ¹⁰ روبرت هولب: نظرية التلقي "مقدمة نقدية"، تر: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، د ط، القاهرة، 2000، ص: 25.
- ¹¹ هانس روبرت يابوس: جمالية التلقي "من أجل تأويل جديد للنص الأدبي"، تر: رشيد بنحدو، المجلس الأعلى للثقافة، ط 1، القاهرة، 2004، ص: 101.
- ¹² روبرت هولب: نظرية التلقي "مقدمة نقدية"، ص: 25.
- ¹³ محمود عباس عبد الواحد: قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي "دراسة مقارنة"، دار الفكر العربي، ط 1، القاهرة، 1996، ص: 15.
- ¹⁴ ابن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله على الكبير وآخرون، دار المعارف، د ط، القاهرة، دت، مادة لقا، ص: 4066.
- ¹⁵ محمود عباس عبد الواحد: قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي، ص: 13.
- ¹⁶ أحمد بوحسن: نظرية التلقي والنقد الأدبي العربي الحديث، ضمن كتاب: نظرية التلقي إشكالات وتطبيقات، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 24، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، د ط، الرباط، ص: 14.
- ¹⁷ المرجع نفسه، ص: 15.
- ¹⁸ محمود عباس عبد الواحد: قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي، ص: 13.
- ¹⁹ سورة النمل، الآية: 06.
- ²⁰ سورة البقرة، الآية: 37.
- ²¹ سورة ق، الآية: 17.
- ²² سورة النور، الآية: 15.
- ²³ محمود عباس عبد الواحد: قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي، ص: 15.
- ²⁴ فؤاد عفاي، نظرية التلقي "رحلة الهجرة"، ص: 254-256.
- ²⁵ فاطمة البريكي: قضية التلقي في النقد العربي القديم، دار العالم العربي للنشر والتوزيع، ط 1، عمان-الأردن، 2006، ص: 44.
- ²⁶ ناظم عودة خضر: الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط 1، عمان - الأردن، 1997، ص: 14.
- ²⁷ فاطمة البريكي: قضية التلقي في النقد العربي القديم، ص: 43-44.

- ²⁸ محمد مفتاح: المفاهيم معالم "نحو تأويل واقعي"، المركز الثقافي العربي، ط 2، الدار البيضاء- بيروت، 2010، ص: 15.
- ²⁹ فاضل ثامر: اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، ص: 169.
- ³⁰ عبده عبود: هجرة النصوص "دراسات في الترجمة الأدبية والتبادل الثقافي"، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط 1، دمشق- سوريا، 1995، ص: 233.
- ³¹ محمد المبارك: استقبال النص عند العرب، دار الفاس للنشر والتوزيع، ط 1، الأردن، 1999، ص: 32.
- ³² عبده عبود: هجرة النصوص "دراسات في الترجمة الأدبية والتبادل الثقافي"، ص: 237-238.
- ³³ علي حمودين، المسعود قاسم: إشكالات نظرية التلقي "المصطلح، المفهوم، الإجراء"، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، ع: 25، جوان 2016، ص: 306.
- ³⁴ عبده عبود: هجرة النصوص "دراسات في الترجمة الأدبية والتبادل الثقافي"، ص: 231.
- ³⁵ حسين الواد: في مناهج الدراسات الأدبية، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، ط 2، الدار البيضاء، 1985، ص: 78.
- ³⁶ المرجع نفسه، ص: 79.
- ³⁷ المرجع نفسه، ص: 79.
- ³⁸ فاطمة البريكي: قضية التلقي في النقد العربي القديم، ص: 44.
- ³⁹ محمد مفتاح: المفاهيم معالم "نحو تأويل واقعي"، ص: 15.
- ⁴⁰ فاتن عبد الجبار: الخطاب النقدي في مرايا القراءة "إشكالية المنهج والمصطلح مقاربات في نقد النقد"، ص: 22.
- ⁴¹ فاضل ثامر: اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، ص: 189.